بريد الجمعة

ثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعة

الجمعة ٩ يوليو ١٩٩٩

يكتبه: عبد الوهاب مطاوع

# جنى الثمار!

أنا سيدة متزوجة منذ عشرين عاما.. نشأت في أسرة «فاشلة» بسبب سوء العلاقة بين الأبوين، فأوتيني ذلك الاصرار على النجاح في حياتي، وفضلت منذ صباي الاعتماد على عقلي أكثر من عاطفتي. وحين بلغت سن الشباب اخترت ممن تقدموا لي شابا يتميز بالرجولية، والشهامة والحنان ويعرف دينه وله أخلاقياته الكريمة ويتمتع بحب من حوله، وتزوجنا فكان عند حسن ظني به، وأصبح لي الزوج والحبيب والصديق والأب، ومشكلتي الوحيدة معه كانت تتمثل في أنني لا أحسن التعبير عن الحب بالكلمات، فعوضت ذلك بالتعبير عنه بالأفعال واهتمامي الشديد بزوجي وبكل شئونه.. كما صبرت على صعوبات البداية وعثراتها إلى أن توصلت معه إلى علاقة دافئة اعتبرتها من جانبي ناجحة تماما، وأعجب بها أقله قبل أهلي وزاحموا بيننا وبينه، ولقد وجدت فيما أسمعه وما أقرأه في «بريد الجمعة» أن معظم الأزواج يشكون من أنهم يرجعون إلى بيوتهم مرهقين من عناء العمل والحياة فيجدون زوجاتهم في انتظارهم بالمزيد من العناء، ويلقين على اكتافهم مشاكل البيت والأبناء، فحاولت الا أفعل ذلك، وان أبذل كل جهدي لحل مشاكل البيت والأبناء قبل عودة زوجي إلى بيته، لكيلا أضجره بها، كما رأيت ولمست كذلك ان بعض أسباب المشاكل الزوجية هو أن بعض الأزواج والزوجات لايسرعون بتصفية الشاكل الصغيرة التي قد تنشأ بينهم، فيؤدي ذلك إلى تراكمها وإلى ابتعاد المسافات بينهم بدلا من اقترابها، فحرصت على أن تكون لنا من حين لآخر جلسة للمراجعة نقوم فيها - أنا وزوجي - بتصفية الخلافات الصغيرة بيننا ويخرج كل منا من صدره ما يضايقه من الآخر، وتتم التصافي وتقترب المسافات.

كل ذلك إلى جانب وضعي لزوجي على قمة أولوياتي واهتماماتي فشعرت بأن الدنيا قد عوضتني بزوجي حقا عن كل ما افتقدته في حياتي السابقة من حنان، ولم أشعر من ناحيته إلا بكل إخلاص وتفان في إسعادي، حتى فكرت ذات يوم في أن اكتب لك عن تجربتي الناجحة في الحياة الزوجية لتستفيد بها غيري من الزوجات والمقبلات على الزواج.. لكنني شعرت منذ فترة - بإحساس الزوجة - أن هناك شيئا قد تغير في زوجي فلقد أصبح يشور كثيرا وهو المعروف بهدوء الطبع ويتذرع بالحجج الكثيرة للخروج من البيت.. كما أن لغة الحوار قد توقفت بيننا وابتعدت المسافات، ولأنني أعرف كل خلجة من خلجاته فلقد تيقنت من أن هناك شيئا ما قد طرأ عليه ولابد لي من اكتشافه، وواجهت زوجي بأفكاري فإذا به يعترف لي بلا مراوغة بأن هناك امرأة أخرى! كيف.. ولماذا.. ومالا حدث؟.. سألته عن كل ذلك وأنا ذاهلة فماذا به يقول لي انه «التصيد» وانه وجد نفسه متعلقا بأخرى! ولأنني كما قلت لك في البداية أوثر الاعتماد على العقل اكثر من العاطفة فلقد استغربت أن يفعل الانسان شيئا لايستطيع تبريره أو الدفاع عنه، وحاولت أن أعرف من زوجي أسباب مافعل، فإذا به يتحدث عن أخطاء لي، ويعتبرها مبررا لهذا التحول الذي طرأ عليه.. ويكفي أن أقول لك عن هذه «الأخطاء» أن أخوها حدث منذ خمس سنوات ولايعدو الاشياء البسيطة التي تحدث بين أي زوجين، وان من هذه الأخطاء ايضا ماكنت أظنه أنا في سجل ميزاتي، فلقد اعتبر محاولتي الدائمة لعدم الضغط عليه بمشاكل الأبناء، والبيت خطأ من هذه الأخطاء، وبأن الأبناء قد أصبحوا يعتمدون علي في حياتهم فقط دونه! وفورت ان أسلك الطريق الصعب وأستمر في محاورة عقله على الرغم مما يعتصرني من الألم، وقلت له اذا كان قد كرهني فمن الأفضل لي وله أن ينهي أحلامي ويسرحني بإحسان، فإذا به يرفض ذلك رفضا قاطعا ويقول لي انه لايستطيع الاستغناء عني ولا أن ينفض هواء لا أنتظمه أنا، وانه سوف يحتفظ بي للنهاية ولو كان ذلك ضد ارادتي، وكان المنطق بعد أن أسمع منه هذا الجواب أن أطالبه في الحال بترك الأخرى ما دام لايستطيع الاستغناء عني، لكنه صدمني من جديد بأنه لايستطيع ذلك ايضا لانه يريدها هي وسريرة معه.. عرفت أنه يريدني أن أوافق على زواجه منها وعلى استمرار علاقتي به دون أي تغيير، ويتعلل في ذلك بالحق «الشرعي» له في الزواج مرة أخرى حتى ولو لم يكن يشكو شيئا من زوجته وام أبنائه. وبأنه قادر على الإنفاق على الأسرتين وقادر أيضا على العدل بينهما!

ولقد حار عقلي في فهم مايريد الرجل.. وماذا يرضيه.. إنه يشكو من زوجته اذا أثقلته بمشاكل البيت والأبناء.. ويشكو منها كما فعل زوجي اذا هي حملتها عنه وأراحته منها.. وأريد أن أسألك بضعة أسئلة تنغص علي حياتي، هل من العدل في الحسبة سنوات وأتسلم ارضا جرداء لا زرع فيها ولا ماء فأرويها بشبابي وسنوات عمري عشرين عاما أو أكثر إلى أن تؤتي الأرض ثمارها ويحين وقت الحصاد، فأجد من تمد يدها معي لتجني نصف الثمار التي لم تروها بقطرة ماء واحدة ولم تشق في رعاية بذورها وأشجارها؟

وهل تستوي الزوجة الصالحة التي ترعى ربها في زوجها وبيتها وأبنائها وليست مريضة بمرض يمنعها من أداء واجباتها الزوجية، ولا سيئة الطبع أو العشرة، مع أخرى لم ترع زوجا ولا بيتا ولا مالا ولم تحسن معاشرة زوجها ولم تجد معها محاولات الإصلاح فيحث زوجها عن أخرى وتزوجها حلا لمشكلته مع الأولى؟

واذا لم يكن هناك فارق بين الزوجتين.. في مثل هذه الحالة.. فلماذا إذن تسعى امرأة لكي تكون زوجة صالحة إذا كانت النتيجة واحدة في النهاية وهي تحلل الرجل بالحق الشرعي في الزواج من غيرها؟

ثم أريد في النهاية أن أسأل تلك الفاتنة: ألا تعلم هي حقا أن من عاشر زوجته عشرين عاما لم يشك منها خلالها وكان دائم الاشادة بها في كل مناسبة حتى ظهرت هي في حياته.. أسأل هذه الفاتنة: هل تتوقع حقا أن يستمر زواجها بمثل هذا الرجل!.. وهل تتصور أنه لن يجيء الوقت الذي يشعر فيه بالحنين لزوجته التي يقول إنه لايستطيع ابعادته عنها ويشعر بأنها قد أغرته ويعتبرها مسئولة عن فقدانه لزوجته وأسرته؟!.. وهل تظن حقا أن مايشعر به تجاهها ليس سوى رغبة رجل يحس بأنه يريد امرأة اضافية لنفسه متعللا في هذه الرغبة بالرخصة الشرعية في الزواج الثاني؟!

وبماذا أنصح ابنتي بأسيدي عند الزواج.. هل انصحها بأن تكرر ما فعلته أنا وتختار شابا يحبها وله أخلاقياته وتدينه ومبادئه ومستقبله الذي يبشر بالخير كوالدها، فتكافح معه بضع سنوات وتتحمل عناء البداية والسنوات العجاف إلى أن تبدأ في جني ثمار الكفاح!.. أم ترى أن انصحها بألا تتعب نفسها في الكفاح والصبر وبأن تنتظر رجلا حان وقت قطف ثماره، فتشارك زوجة أخرى مكافحة في حلو قطف ثماره أو تستأثر به دونها كما تفعل الآن هذه الأخرى التي كدرت سماء حياتي؟..

إنني حائرة ومتخبطة.. فماذا تقول لي؟

## ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

أسفي من الألم أن تضطرنا الظروف القاسية في بعض الأحيان إلى التجاوز عن الامعان، لكي نتفاهم بصبر وموضوعية مع من صنعوا لنا هذا الألم ونحاول إقناعهم بالعدول عما يفعلون بنا، وتتحمل مجاداتهم وادعاءاتهم لتبرير مافعلوا بنا.

ولأن الحياة ليست في كل الأحوال نزهة شاعرية في نهر هادىء الأمواج، فمن واجبنا أن ندرب انفسنا على تجاوز «الألم» في بعض الأحيان إلى مناقشة صاحبه في أسباب إيلامه لنا، وكيفية عدولهم عما يؤلموننا به، وكنا متحدث في ذلك عن مشكلة صديق نهتم بأمره وليس عن الامة الشخصية وتعاستنا الخاصة.

ولقد لفت انتباهي في رسالتك وانت تتفاهمين مع زوجك اسباب رغبته في الارتباط بأخرى على الرغم من خلو علاقتكما الزوجية من اسباب واضحة للشكوى او التعاسة، انه قد بدا المناقشة بتعليل ذلك في البداية بـ «التصيد» جريا على عادتنا نحن البشر في نسبة نزواتنا واخطائنا وضعفنا البشري إلى قوى غيبية غامضة نندو معها وكاننا مسيرون فيما نفعل رغما عنا ولسنا مخيرين فيما نختاره لانفسنا من اختيارات، وحين لم يكف هذا التبرير القدري لإقناعك وهو غير مقنع بالفعل، فلقد راح يسترجع مايعتبره من اخطائك ويبرر به تحوله ووقوعه في هوى تلك الأخرى، والتماس الأخطاء للآخرين حيلة نفسية معروفة لتبرير إساءة المرء لهم، وكانما يريد بذلك أن يعفي نفسه من الاحساس بالذنب تجاههم بادعاء أن الآخرين يستحقون ما ارتكبه ضدهم من إساءات.. وبالتالي فلا لوم عليه فيما فعل ولا تثريب، وكلنا المحاولتين خاطئتان وقاتلتان بكل تاكيد، فتعليق اخطائنا ونزواتنا وذنوب انفسنا على «التصيد» محاولة فاشلة للزعم بانعدام الارادة فيما نفعل ونختار، وهو مايتنافى حقا وصدقا مع الواقع والحقيقة في معظم الأحيان. ومحاولة التماس الأخطاء لك، دوافعها النفسية واضحة ومفهومة وهي ميل الإنسان الغريزي للرثاء لنفسه.. وتفضيله في كثير من الأحيان لأن يعتبر نفسه ضحية للغير وليس جانيا عليهم، وخطورة الغدر ممن لايتوقع منهم الإنسان إلا الوفاء، هو أنه يهز القيم والمثل في نفس المغدور به، وانه يشككه في جدوى التزامه بالمبادىء والقيم التي يرى نفسه ملتزما بها.. ولهذا فمن العدل أن نتعامل مع الخطأ باعتباره تصرفا فرديا أو نزوة عابرة ترجع في أسبابها إلى ضعف مرتكبها وليس إلى عيب في هذه المبادىء، فلا يغير من ذلك ذوابتنا الأخلاقية ولا يفقدنا الايمان بخيرية المبادىء القويمة والقيم المثلى، ولهذا فلسوف تجدين نفسك ياسيدتي بالضرورة وليس بالاختيار تنصحين ابنتك بان تكرر قصتك انت مع الزواج وليست قصة الأخرى فاطفة الثمار، لانها المثل السوىء الذي ينبغي تكراره مهما اعترض الحياة من عثرات وهفوات، ولسوف تجدين نفسك مطالبة بإعلاء نفس مثلك وافكارك عن الحياة الزوجية السوية لديها.. من ارتباط بشاب مناسب لها في السن والتكافء معه وتحمل صعوبات البداية إلى ان يؤتي زرعها حصاده وتستمتع بثمراته، وان يغير من ذلك شيئا ان والدها قد فاجأك بعد ٢٠ عاما من العشرة الطيبة بوقوعه في هوى اخرى ورغبته في الجمع بين الحسنيين في حياته، زوجته الأولى وحياته المستقرة معها ومع ابنائه وهواه الجديد وفرتشاف الرحيق الموهوم فيه بالطريق المشروع، ولا عجب في ذلك لأن نهجك في الزواج هو القاعدة، ولأن رغبة زوجك في التمتع باخرى بلا اى مبررات جادة او نقص يشكوه في حياته معك هو الاستثناء، وسيظل كذلك إلى ابد الابدين.

ولقد قلت مرارا إن «الحلم المستحيل» الذي يراود كل زوج يقع في هوى امراة اخرى او يتوهم ذلك، هو أن يحتفظ بزوجته الأولى وحياته معها وباستقرار ابنائه في عنفها، ثم يمرح هو كيفما يشاء مع زوجته الجديدة زاعما لنفسه انه يحقق العدل بينها وبين زوجته الأولى ورفيقة كفاحه، وظلمنا إلى أن أسرته الأولى لم تنهدم بالانفصال، وان استقرار الأبناء وسعادتهم لم يتاثرا بزواجه «العاطفي» الآخر.

ولهذا فهو يكافح حتى الرمق الأخير لكي لايكون ثمن استجابته لنداء العاطفة او المغامرة، هو تهدم أسرته الأولى وتمزق ابنائه بينه وبين زوجته، ولا يتخلى عن الأمل في أن ينجح بكل الحيل في إقناع زوجته الأولى بالاستمرار، زاعما لها انه لايستطيع الاستغناء عنها او انه لايقدر على الا يتنفس الهواء الذي تتنفسه كما يقول لك زوجك، ولا شك فيما يحمله هذا الزعم من تناقض غريب لايتفق مع المنطق ولا مع الطبيعة البشرية، لأن من لايقوى على مفارقة زوجته لأسباب عاطفية وليس لحاجته إليها لرعاية ابنائه والحفاظ على كيان الأسرة ينبغي له الا يقدر كذلك - اذا كان صادقا في زعمه - على إيلام زوجته وإشراك امراة اخرى لها في مشاعره واهتماماته وحياته، ولهذا فإن تصحيحي لكل من تواجه هذا الموقف العصيب هي الا تسلم نفسيا بقبول هذا الوضع الذي يرغب زوجها في فرضه عليها، لكي يقلل من فاتورة الخسائر العائلية بسبب زواجه الآخر، وان تتمسك بالرفض النفسي لذلك حتى ولو أثرت تغليب اعتبارات الابناء على اعتباراتها الشخصية وفضلت الاستمرار مع زوجها حماية لأبنائها واحتفاظا بحقها المشروع في ألا تنسحب من الأرض التي روتها بعرقها ودموعها وتخليها طائعة لمن لم تظهر في الافق إلا في موسم الحصاد!

وكثيرات هن من يرجحن مصلحة الأبناء على الكرامة الشخصية والاعتبارات العاطفية، لكنهن يتمسكن في نفس الوقت بالرفض النفسي لما يرغب شريك الحياة في فرضه عليهن بشتى الحيل والمزاعم إلى أن يكتشف الزوج زيف المغريات ويرجع نادما إلى من اساء إليهن.. فاذا كان لي أن أضيف إلى ماقلت شيئا فعلى اقول فقط انني قد توقفت خلال سردك لقصتك امام ماقلت عن نفسك من انك كنت تواجهين مع زوجك مشكلة واحدة هي انك لا تجيدين التعبير عن الحب بالأقوال وتؤثرين التعبير عنه بالأفعال وحدها وباهتمامك بزوجك ووضعه دائما على راس اولوياتك واهتماماتك، ويتسق ذلك مع ماقلت في موضع آخر من أن ظروفك العائلية قد اورثتك إيثار الاعتماد على العقل اكثر من العاطفة.. ولا شك في أن الاعتماد على العقل في تصرفات الإنسان واختياراته امر مطلوب دائما، ولكن دون إهمال في نفس الوقت لدور العاطفة في حياته وإلا خلت الحياة من بعض مباهجها ومن كثير مما يجعل الإنسان إنسانا.. وكذلك فإن التعبير عن الحب بالأفعال والتصرفات امر إيجابي ومرغوب بالفعل، لكن ذلك لايبرر ابدا إغفال التعبير عنه كذلك بالكلمة الرقيقة واللفتة الحانية، وإلا ظن الشريك في شريكه جمود العاطفة وجفاف القلب.. ونفس الشيء يمكن ان يقال عن شكوى زوجك من أن الأبناء قد أصبحوا يعتمدون في حياتهم عليك دونه، وانه لايشعر باهميته لدى ابنائه وفي بيته، فالحق ان دوافعك لعدم إرهاق زوجك بمشاكل الأبناء والبيت كانت دوافع مخلصة وتهدف إلى التخفيف عن كاهله بدلا من إلقائه بالمتاعب الأسرية، لكن المثل الانجليزي القديم يقول لنا ايضا: ان الطريق إلى الجحيم كثيرا مايكون مفروشا في بعض الأحيان بالنيات الحسنة!! وبالتالي فلقد كان من حسن الادراك والفهم أيضا الا تتجاوز رغبتك في التخفيف عن زوجك الحدود الآمنة لها فتبدو في نظره وكانها «إبعاد» له عن شئون أبنائه وبيته وليس إشفاقا عليه من إثقاله بها.. وكان من حسن الإدراك كذلك الا يشعر الزوج ابدا بان الحياة في بيته تدور حول محور آخر سواء مهما كانت نبلة هذا المحور الآخر طيبة ودوافعه نبيلة، ومن هذا القبيل ايضا الا يشعر الزوج والأب ان ابناءه ليسوا قريبين منه بنفس درجة قربهم من امهم، وانه لايواجه في حياته العائلية حربا خفية مع شريكة حياته لاستقطاب ابنائها إليها.. وليس إليه. فلماذا لاتناقشين كل ذلك مع زوجك من جديد.. ولماذا لاتواصلين جهادك المقدس للاحتفاظ به لنفسك وأبنائك دون الاخريات..إن الأوان لم يفت بعد لتعديل الأفكار وتصحيح المسار.. ومقاومة الغزاة.. فلماذا لاتكررين المحاولة مرة اخرى؟